

الحقبة يشيد في كتابه المغرب بهذا الجانب في المصريين، ويعجب منه عجباً طويلاً. وإن من يتصفح آثار الشعراء في هذا العصر لا يلبث أن يغرق في الضحك لكثرة ما صنعوا من مداعبات وفكاهات، ففي كل مكان وفي كل ناد لا همّ للشعراء إلا أن يتحفوا معاصريهم بنكتهم ونواديرهم، وهي نكت ونوادير لم يقفوا بها عند رُفقاتهم وأصدقائهم، بل تعدوهم إلى ساستهم وحكامهم. روى ابن إياس أنه لما قتل السلطان حسن وكان فيه خلاعة وإدمان على الراح وحسب الملاح قال بعض الشعراء متهكماً:

لما أتى للعاديات وزلزلتُ حفظ (النساء) وما قرأ للواقعة

وواضح أنه استعان بهذه السور من القرآن الكريم ليعبر بها عما يريد من سخرية بالسلطان وسيرته. وقد كان الشعراء ماهرين في استخدام مثل هذه التورية البعيدة، وقد يخرجون عن صوابهم فتكون سخريتهم بحكامهم واضحة بينة، كقول بعض شعرائهم في وزير يسمى البياوي:

قالوا البياوي قد وزرُ فقلت كلا لا وزرُ
الدهر كالدولاب لا يدور إلا بالبقسُرُ

وهناك قطعة عامية رواها ابن تغرى وابن إياس وكان يتغنى بها العامة لعصر السلطان بيبرس الجاشنكير، وكانوا يكرهونه كما كانوا يكرهون نائباً تزيياً له، نيزوه باسم دُقين تندرا عليه لأنه كان أجرد وفي حنكه بعض شعرات، وانتهزت العامة فرصة غيبة الليل وغنت في المتفرجات:

سلطاننا رُكين ونائبو دُقين يميننا الماء من أين
هاتوا لنا الأعرج يبي الماء يدُحرج

والتورية في ركين واضحة، ويريدون أنه مركون، أما الأعرج فهو الناصر محمد ابن قلاوون إذ كان به عرج، وكانت العامة تؤثره على بيبرس وتريده على العرش.